خطاب الزّمن في السّرديات المغاربية
صيغ التمظهر الرّوائي لعبد اللطيف محفوظ أنموذجا.

د. علي سحنين – جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر الجزائر.

تحاول هذه الدراسة مقاربة خطاب الزمن في المدونة النقدية لدى عبد اللطيف محفوظ من خلال كتابه "صيغ التمظهر الروائي" الذي عمل فيه على اختبار تقنيات مقولة الزمن وتطبيقها على خطاب رواية "البحث عن وليد مسعود" لجبرا إبراهيم جبرا، حيث عمد إلى تقسيم تحليلاته لهذا المكون السّرديّ إلى قسمين، اهتمّ في القسم الأوّل بالجانب الشّكليّ للزّمن الذي تجسّده العلاقة بين زمن القصّة وزمن الخطاب، منطلقا في ذلك من تحديدات "جيرار جينات" ومفاهيمه الزّمنية، ودرس في القسم الثّانيّ دلالة الزّمن من خلال العلاقة بين المتكلّمين وأفعالهم، وماضيهم وحاضرهم، معتمدا التّمييز الذي وضعه "غاستون باشلار" بين زمن الأنا والزّمن الفيزيائيّ.

من هذا المنطلق أمكننا طرح بعض التساؤلات كالآتي:

-كيف استدعى "عبد اللطيف محفوظ" النموذج الزمني لدى جيرار جينيت؟

-ما طبيعة التقنيات الزمنية التي استثمرها "محفوظ" في مقاربة النص الروائي "البحث عن وليد مسعود"؟

- إلى أي مدى تمكن "عبد اللطيف محفوظ" من إدراك آليات اشتغال الزمن في هذه الرواية؟

1- منطلقات تحليل الزّمن الرّوائي عند عبد اللطيف محفوظ:

وقع اختيار "عبد اللّطيف محفوظ" -في دراسته للزّمن ضمن كتابه صيغ التمظهر الرّوائي- على رواية "البحث عن وليد مسعود" لجبرا إبراهيم جبرا،حيث عمد إلى تقسيم تحليلاته لهذا المكون السّرديّ إلى قسمين، اهتمّ في القسم الأوّل بالجانب الشّكليّ للزّمن الذي تجسّده العلاقة بين زمن القصّة وزمن الخطاب، منطلقا في ذلك من تحديدات "جيرار جينات" ومفاهيمه الزّمنية[1]. ودرس في القسم الثّانيّ دلالة الزّمن من خلال العلاقة بين المتكلّمين وأفعالهم، وماضيهم وحاضرهم، معتمدا التّمييز الذي وضعه "غاستون باشلار" بين زمن الأنا والزّمن الفيزيائيّ. لكنّه ارتأى قبل ذلك أن يمهّد لما سبق بتحديد أزمنة النّصّ المنطقيّة في علاقتها الدّاخليّة (زمن الخطاب) والخارجيّة (زمن القصّة).

[1]: Voir, (Genette) Gérard, Figures III,éd, Seuil, Paris, 1972, Cérès éditions, Tunis, 1996,p. 101.

2-دراسة التّرتيب الزّمني في الرّواية (العلاقة بين ترتيب زمن القصة وزمن الخطاب):

يرى "عبد اللّطيف محفوظ" أنّ تحديد أزمنة النّصّ المنطقيّة (الماضي-الحاضر-المستقبل) في رواية "البحث عن وليد مسعود" سيقود إلى ضبط العلاقة بين زمن القصّة وزمن الخطاب، وهو ما استدعى ربط هذه الأزمنة في مستوى القصّة بمواقعها الزّمنيّة في مستوى الخطاب؛ بمعنى إخضاع نظام ترتيب الفصول في الخطاب الرّوائيّ إلى نظام ترتيبها الزّمنيّ المنطقيّ، كما ورد في مستوى القصّة. وهو ما يجسّده الجدول الآتيّ:

ترتيب الزّمن المنطقي (مستوى القصّة)	ترتيب الفصول (مستوى الخطاب)
1	الفصل الرابع (4): وليد مسعود يتذكر النساك في كهف بعيد.
2	الفصل السادس (6): وليد مسعود يكتب الصفحات الأولى من سيرته الذاتية.
3	الفصل الثالث (3): عيسى ناصر يشهد موت مسعود الفرحان بعد أن عاصر بعضا من حياته.
4	الفصل الثامن (8): وليد مسعود يخترق أمطارا تتجدد.
5	الفصل العاشر (10): مروان وليد يقتحم أم العين مع رفاقه.
6	الفصل الأول (1): جواد حسني يتسلم تركة صعبة.
7	الفصول: (2-5-7-9)
11	الفصل الحادي عشر (11): إبراهيم الحاج نوفل ينبش الكوامن حتى الفجر.
12	الفصل الثاني عشر (12): د. جواد حسني يعد بالمزيد.

يتّضح من خلال هذا الجدول مدى تمكّن الباحث من ضبط علاقة التّرتيب الزّمنيّ لأحداث الرّواية بين القصّة والخطاب، ووقوفه على عمليّة تصرّف السّارد وتكسيره لخطّيّة الزّمن المنطقيّ في بناء الفصول الرّوائيّة وتشكيل نظام تسلسلها الزّمنيّ. لكنّه يستصعب تحديد التّرتيب الزّمنيّ للفصول:(2-5-7-9) بالنّظر إلى الغموض الذي يكتنفها، وقياسا إلى بعضها البعض، وهو ما جعله يعدّها متزامنة وخاضعة لتقنيّة التّناوب[2] في أثناء ورودها في الخطاب.

على إثر ذلك يشير "محفوظ" لافتا الانتباه إلى أنّ التّرتيب الزّمنيّ المفترض الذي أسماه "جينات" بالزّمن الزّائف[3]، لا يمكن أن يخضع إلاّ لحاضر القصص المتضمّنة في فصول الرّواية، لا إلى حاضر الكتابة أو التلفّظ (الخطاب)، ممّا يجعل -حسب رأيه- التّعقيد والتّشابك الزّمنيّ الذي طال الفصول: (2-5-7-9) يطال فصولا ومقاطع أخرى من خطاب الرّواية؛ إذ قد يستعصي تحديد ترتيبها الزّمنيّ من خلال زمن الكتابة أو التلفّظ أيضا؛ ذلك لأنّها مكتوبة بضمير المتكلّم والزّمن المستعمل لكتابتها هو الزّمن الماضيّ، ممّا يؤدّي أيضا، وفي نظر الباحث إلى الالتباس في تحديد طبيعة الاسترجاعات والاستباقات، لا سيّما وأنّ الخرق الزّمنيّ لا يخصّ التّسلسل الزّمنيّ للفصول فقط، وإنّما يطال الخطاب الدّاخليّ لجميع فصول الرّواية[4]. ذلك لأنّ بنية الزّمن تعدّ "من أهم البنيات الكتابية لأنها تتغلغل في كل شيء، في الحركة والجمود، في الكلام والصمت، في الحرف والكلمة والمقطع والنص. إنها موجودة وفاعلة بشكل مضاعف ومكثف في كل ما هو مكتوب. موجودة في بنية الكلمة، في تركيبها الصرفي والنحوي، بدءا من أبسط عنصر في الخطاب (الجملة)، بل بدءا من أبسط عنصر في الجملة (الكلمة)"[5]. ولتوضيح ذلك أكثر لجأ الباحث إلى تحليل نموذجين أو مقطعين سرديّين من خطاب الرّواية، وستقتصر الدّراسة على إضاءة النّموذج الأوّل لشموليّته ووضوحه، ولكي يتسنّى الوقوف -عن قرب- على عمليّة التّكسير الزّمنيّ التي لم تشهدها الفصول الرّوائيّة فحسب، بل طالت حتى المقاطع السّرديّة وجملها المكوّنة للخطاب الرّوائيّ.

---

[2]: ينظر، محفوظ (عبد اللّطيف)، صيغ التمظهر الروائي، بحث في دلالة الأشكال، منشورات مختبر السرديات، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، المحمدية، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص. 108، 109.

[3]: Voir, (Genette) Gérard, Op. cit,p. 111.

[4]: ينظر، محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، ص. 110.

[5]: المصدر نفسه، ص. 103.

يعيّن "عبد اللّطيف محفوظ" في البداية هذا النّموذج، وهو عبارة عن مقطع خطابيّ مأخوذ من الفصل الأوّل من الرّواية، ثم يقوم بعد ذلك بإعادة كتابته مرّة ثانية محافظا على نظامه الخطابيّ، لكنّه يعطي لكلّ جملة أو وحدة من وحداته السّرديّة الصّغرى المكوّنة له رقما يحيل إلى مرتبتها في تسلسل الزّمن المنطقيّ، كالآتي:

"6. خابرني وليد صباح يوم اختفائه 5. كنت في فراشي عندما دعتني هالة إلى التلفون.4. حوالي السادسة صباحا.7.خير؟ قلت. والنوم ما زال في عيني.8. قال:"جواد...9.لم أسأله عن وجهة سفره ولو أنني خمنت أنه سيذهب على الأرجح إلى لبنان، ومن ثم إلى إيطاليا.1. أكثر من مرة فعل ذلك في السابق (أي أنه كان يذهب إلى هناك سابقا 3. لخشية من أن أمرا قد يحدث له فيعيقه عن العودة إلى بغداد.10. أما هذه المرة فراح ولم يعد"[6].

بناء على هذا التّرتيب الزّمنيّ المنطقيّ يعيد الباحث كتابة المقطع مرّة أخرى بالطّريقة الآتيّة:

"أكثر من مرة كان وليد يذهب إلى لبنان ومن ثم إلى إيطاليا خشية من أن أمرا قد يحدث له فيعيقهعن العودة إلى بغداد. حوالي السادسة صباحا كنت في فراشي عندما دعتني هالة إلى التليفون. خابرني وليد صباح يوم اختفائه، خير قلت والنوم ما زال في عيني، قال: جواد...لم أسأله عن وجهة سفره، إنني خمنت أنه سيذهب على الأرجح إلى لبنان ومن ثم إلى إيطاليا (كالعادة). أما هذه المرة فراح ولم يعد"[7].

إذا كان هدف الباحث من خلال هذا النّموذج، هو -بالدّرجة الأولى- إبراز العلاقة غير المتكافئة بين زمن القصّة وزمن الخطاب[8]؛ فإنّه أغفل الاهتمام بالجانب الدّلاليّ الكامن وراء هذا التّكسير الزّمنيّ أو الاختلال الطّارئ على ترتيب الزّمن المنطقيّ في مستوى الخطاب. كما أنّه يُقصر تحليله على نموذجين أو مثالين اثنين فقط، دون أن يكلّف نفسه عناء تعميم ذلك بجعله يشمل جميع الجمل والمقاطع السّرديّة التي طالها هذا الخرق والتّشويش في الخطاب الرّوائيّ. لكنّه بالرّغم من ذلك يبقى إنجاز الباحث دلالة واضحة على متابعة دقيقة ووعي عميق بطريقة تشكّل الزّمن وانبنائه، ليس فقط في مستوى ما تمظهره الفصول الرّوائيّة، وإنّما حتّى في مستوى المقاطع والجمل الخطابيّة، التي قلّما

[6]: محفوظ (عبد اللّطيف)، صيغ التمظهر الروائي، ص. 112.

[7]: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[8]: Voir, (Genette) Gérard, Op. cit,p. 110, 111.

يراعى نظام ترتيبها الزّمنيّ في خطاب المحكيّ بالنّظر إلى صعوبة إدراكه وتعقّد مسالكه، مقارنة بنظام ترتيب أحداث الفصول الرّوائيّة.

3-دراسةالمدّة الزّمنية:

بعد معاينة علاقة التّرتيب الزّمنيّ في الرّواية، ينتقل "محفوظ" إلى دراسة مدّتها الزّمنية أو (سرعتها السّرديّة) حسب اصطلاح الباحث؛ حيث يحدّد بدءا (سرعتها الخارجيّة) التي تمتدّ من سنة 1917 إلى قبيل حرب أكتوبر 1973، وتستغرق قرابة 56 سنة؛ أي ما يعادل 6.6 صفحات لكلّ سنة، ممّا مكّنه من الوقوف على مدى (سرعة الكتابة) وكثافتها في مستوى الخطاب على حساب الأحداث السّرديّة في مستوى القصّة، وعلى مدى تحقّق ذلك بواسطة تقنيّات الحذف والتّلخيص والوقفة[9].لكنّه في أثناء معاينته (لسرعتها الدّاخليّة) يكتفي بدراسة الفصل الأوّل لصعوبة المأموريّة من جهة، ولتلافي التّكرار الذي يحصل جرّاء تشابه التّقنيّات الزّمنيّة بين جميع فصول الرّواية، من جهة ثانية. وقد أفضى به التّحليل في هذا الفصل إلى رصد زمنيه: زمن الماضي وزمن الحاضر، مع مقابلته عدد السّنوات التي يستغرقها كلّ زمن بعدد الصّفحات التي يشغلها في حيّز الخطاب، لينتهي إلى رصد التّقنيّات الزّمنيّة السّائدة في هذا الفصل، وهي تقنيّات: (الموجز المكثّف) و(الإضمار)؛ أي التّلخيص والحذف، مكتفيّا بتعميم ملاحظته هذه على بقيّة الفصول الأخرى، دون أن يدلّل على وجودها في الرّواية. فمثلا في أثناء متابعته لتقنيّة (الإضمار) ينتهي به الأمر إلى اعتبار "رواية البحث عن وليد مسعود" رواية (إضمار)[10]. لكنّه مع ذلك لم يكلّف نفسه تبرير حكمه هذا، أو أنّه علّل أسباب لجوء السّارد إلى توظيف هذه التّقنيّة في الرّواية. باستثناء ما تمّ الوقوف عليه من إشارات -في اختتامه لدراسة البنية الزّمنيّة في الرّواية- تدلّ على أنّ توظيف هذه التقنيّة ينسجم مع إضمار حقيقة اختفاء وليد مسعود في الرّواية.

كما أنّ النّتائج التي توصّل إليها الباحث من خلال تحليله لما أسماه (السّرعة السّرديّة) في رواية "البحث عن وليد مسعود" ككلّ يؤدّي إلى الغرابة والتّناقض، وإلى تعطيل الوظائف والأدوار التي تقوم بها هذه التّقنيّات في خطاب المحكيّ، ومنها هذه النّتيجة التي توصّل إليها بعد تعيينه لتقنيّات (السّرعة السّردية) ووظائفها في الرّواية؛ إذ يقول: "وهكذا نستطيع القول بأن سرعة الحكاية [يقصد القصّة] تفوق سرعة الخطاب المظهر

[9]: ينظر، محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السّابق، ص. 114.

[10]: ينظر، المصدر نفسه، ص. 120.

مهما تنوعت تقنيات وصيغ السرد، بحيث لا تؤثر هذه الصيغ إلا نسبيا في كثافة سرعة الخطاب ... فبالرغم من وجود مشاهد وصفية أو حوارية، فإن الحكاية تظل أسرع من الخطاب الذي يمظهرها"[11]. فهذا الكلام يتضمّن تناقضا صارخا مع ما حدّه "جينات" لهذه التّقنيّات من أدوار وظائف في خطاب المحكيّ؛ لأنّها تسهم في تقليص زمن القصّة وتسريع وتيرته وتكثيفها في الخطاب خاصّة تقنيّتي الحذف والتّلخيص[12]. وأما النّتيجة الثّانية التي توصّل إليها الباحث أيضا حين انتهائه من متابعة أدوار الوصف في الرّواية فيجسدها قوله: "وهكذا يتضح أن الوصف لا يوقف السرد، ولكنه يساهم في ملء بعض الثغرات الموجودة في زمن الحكاية، ولكن بشكل موجز تتقلص بفضله المسافة بين زمن الحكاية وزمن الخطاب، دون أن يتحقق التساوي بينهما، أو أن يصبح زمن الحكاية أقل سرعة من زمن الخطاب"[13]. وهنا يتضّح أيضا مدى تناقض "محفوظ" في ضبطه لوظيفة تقنيّة الوصف في تحديد مدّة الزّمن بين القصّة والخطاب؛ إذ نتساءل: كيف يكون زمن الخطاب أقلّ سرعة من زمن القصّة؟ونحن نعلم أنّ الوصف يؤدّي إلى وقف الزّمن أو إبطائه.

لعلّ مع النّتيجة الأخيرة التي توصّل إليها الباحث بصدد مناقشته لتقنيّة الحوار أو ما يسمّى بالمشهد في الرّواية، يقف الدّارس على مدى مخالفته لجينات في فهمه لتقنيّة المدّة بشكل عام؛ إذ يقول: "ومن ثم نستنتج أن سرعة الحكاية أكثر ولو بقليل من سرعة الخطاب الذي يظل موجزا حتى في حالة الحوار... وتؤكد كل هذه المظاهر على استحالة التوازن بين سرعة زمن الحكاية وزمن الخطاب في مستوى الحوار أيضا، لتظل الحكاية أسرع وأطول من الخطاب"[14]. وبذلك يكون مفهوم المدّة عنده ملتبسا من جهة دلالته على الإطالة التي تميّز زمن سرد الحدث في مستوى القصّة؛ بمعنى أنّه يقصد بالمدّة طول المدّة الزّمنية التي تستغرقها أحداث القصّة في الواقع، وهو ما يتناقض مع مفهوم "جينات" الذي يعني بالمدّة طول النّص أو سعة حجمه التي تقاس بالأسطر والصّفحات في مستوى الخطاب[15]، كما أنّه في وضعه لهذا المفهوم لم يقصد به مدّة الزّمن وسرعته في مستوى

---

[11]: المصدر نفسه، ص. 116.

[12]: Voir, (Genette) Gérard, Figures III,p. 192.

[13]: محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، ص. 118.

[14]: المصدر نفسه، ص. 118، 119.

[15]: Voir, (Genette) Gérard, Op. cit,p. 182.

القصّة، وإنّما أراد به مدّته وسرعته في مستوى الخطاب؛ لأنّ إدراك عمليّة تقليص السّارد لأحداث القصّة وتسريع وتيرتها يكمن في مستوى الخطاب، وليس في مستوى القصّة.

من هذا المنطلق ،يبدو أنّ "عبد اللّطيف محفوظ" ينطلق من تصوّرات "جينات" الزّمنيّة، وفي نيّته أن يتجاوزها في الوقت نفسه، وقد تجلّى ذلك أيضا من خلال استعماله لمفهوم التّمظهر بدل مفهوم الخطاب عند "جينات".

4-تقنية التواتر:

تأتي دراسة الباحث لتقنيّة التّواتر في الرّواية عجلى وسريعة جدا، رغم تصريحه بثراء النّصّ الرّوائيّ واحتفائه بهذه الظّاهرة، ولا سيّما ظاهرة المحكيّ التّكراري التي يقتصر حديثه عنها على المقطع الأوّل في الرّواية الذي بدا له قادرا على توضيح هذه الظّاهرة وشرحها. فالباحث لا يهمّه الحضور المكثّف لهذا النّمط من التّواتر بقدر ما يهمّه التّمثيل له بالدّرجة الأولى. وقد طالت هذه الطّريقة في التّناول جميع أنماط التّواتر الأخرى؛ إذ جاء تناول الباحث لها محتشما، ومقتصرا على بعض الشّواهد والأمثلة البسيطة من الرّواية، ليس بإمكانها أن تقدّم نظرة شاملة عن ظاهرة التّواتر في الرّواية ككلّ، وفي هذا الصدد بإمكان القارئ أن يتساءل عن سر الإقصاء والتّهميش الذي طال تقنيّة التواتر في الدّراسات السّرديّة العربيّة. ولعلّه قد لا يبالغ الدّارس إذا قال بأنّه لا يكاد يعثر -وفي حدود الاطّلاع- على دراسة اختصّت هذه التقنيّة الزّمنيّة باهتمام بليغ، باستثناء الدّراسة المطوّلة التي قدّمها "محمد الخبو" لها في رواية "الوجوه البيضاء" لإلياس خوري ضمن دراسته "الخطاب القصصيّ في الرّواية العربيّة المعاصرة".

5-دلالة الزّمن في الرّواية (زمن الأنا والزّمن الفيزيائي):

بعد دراسته للبنية الزّمنيّة ووقوفه على أبرز تمظهراتها الخطابيّة والشّكليّة، ينصرف "عبد اللّطيف محفوظ" في القسم الثّاني من دراسته للزّمن في رواية "البحث عن وليد مسعود" إلى محاولة استكشاف دلالة علاقة المتكلّمين بالزّمن، وبالأخصّ علاقتهم بالأزمنة التي يعبّرون بها عن ماضيهم، وذلك لما للماضيّ من أهمّية داخل الرّواية، وفي المقابل يظل الزّمن الحاضر "فارغا من الأفعال الفعالة نتيجة استغراق المتكلمين في الحديث عن ماضيهم الخاص"[16]. ويرى الباحث أنّ هذا الاستغراق يقدّم "حقيقتين أوليين، حقيقة كون الشخصيات غير راضية عن الحاضر، وحقيقة كونها لا تستطيع تجاوز الماضي الذي

[16]: محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، ص. 127.

يظل ساهرا خلف حاضرها"[17]. ولإضاءة هذه الأزمنة ودلالتها بالنّسبة للمتكلّمين عمل الباحث على دراسة المستويات الآتية: العمق والامتلاء، المسافة والترسّب، والإيهام والتنكّر، مستعيرا من "غاستون باشلار" تمييزه بين زمن الأنا والزّمن الفيزيائيّ[18]، من أجل دراسة هذه المستويات وتوضيح العلاقة الخلافيّة الموجودة بين زمن الأنا والزّمن الفيزيائيّ. يرصد "محفوظ" في مستوى العمق والامتلاء درجة غوص المتكلّمين في ماضيهم الشّخصيّ، من خلال تتبّعه لمختلف اختياراتهم الزّمنيّة الذّاتية، التي أوجد أنّها تتنوّع بين أزمنتهم الخاصّة وأزمنة غيرهم، وبين أزمنتهم التي يشتركون فيها مع الجماعة. وبناء على ذلك توصّل إلى أنّ الشّخصيات (طارق ومريم ووصال وجواد وإبراهيم وعيسى) في الرّواية يربطون حاضرهم وماضيهم بماضيّ وليد، ويهمّشون أزمنتهم الخاصّة التي لا تمتلك أي قيمة دون ارتباطها بماضي وليد، ولا سيّما شخصيّة عيسى ناصر الذي "يملأ زمنية أناه بزمنية وليد، لأنه يشعر بفراغ زمنيته التي تتماهى مع فراغ زمنية الأنا الجمعي (القاعدة) بمقابل زمنية وليد (الاستثناء) الممتلئة بالفعل"19 بأفعال لفائدة القضيّة الفلسطينيّة. وبهذا يخلص "محفوظ" إلى "أن عمق الغوص لدى كل متكلم يتحدد بمدى عمق معرفته بوليد، كما أن امتلاء زمنية كل واحد منهم، يؤسس على زمنه المشترك مع وليد"20. وفي مقابل أزمنة الشّخصيّات المتشاركة مع زمنيّة وليد، يسلّط "محفوظ" الضّوء كذلك على زمنيّة وليد الذي يملأ زمنيّته بأناه الخاصّة التي تجعل ذاكرته تتجوّل في عوالم الطّفولة والمقاومة والثّورة، والقيم العليا، والأزمنة المثاليّة التي ينبغي أن تسود في المجتمع، من خلال الخروج عن مجال الزّمن الفيزيائيّ وتخطّي حدوده.

وقف الباحث كذلك في مستوى الترسّب والمسافة على المسافة التي تفصل المتكلّمين بالماضيّ ومواقفهم المتعدّدة منه، لكنّه أوجزها في ثلاثة أشكال تتراوح بين الرّفض والتّجاوز، والرّفض والقبول، والاستغراق؛ إذ يأخذ الشّكل الأوّل أبعادا دلاليّة مختلفة من الماضيّ تصل إلى حدّ القطيعة معه أو الرّفض المطلق له وتجاوزه، وهو ما مثّل له الباحث في الرّواية بشخصيّة عبد الحميد عامر الذي يتنكّر لماضيه بهدف التنكّر لتاريخه

[17]: المصدرنفسه، والصفحة نفسها.

[18]: ينظر، باشلار (غاستون)، جدلية الزمن، تر، خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، بيروت، ط2، 1992، ص. 113، 114، 115.

[19]: محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، ص. 129.

[20]: محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، والصفحة السابقة.

الخاص والعام والانسجام مع حاضره، وبشخصيّة مروان الذي يتجاوز ماضيه ليس من منطلق تغيير أفكاره ومبادئه أو التنصّل من أصوله، وإنّما من منطلق التّركيز على الزّمن الحاضر، المتمثّل في مواجهة العدو وتحرير الأرض. ويتجسّد الشّكل الثّانيّ في مواقف الشّخصيّات: عيسى ناصر وإبراهيم وبالأخصّ شخصيّة وليد مسعود الذي رغم مواقفه الحادّة من ماضيه التي قادته إلى تجاوزه فكريّا، إلاّ أنّه لم يتمكّن من تجاوزه عاطفيّا؛ إذ تبقى رواسب هذا الزّمن عالقة بذهنه، ويبقى حنينه لمرحلة الطّفولة والشّباب يرسّخ دوما تلك القيم والأزمنة الجميلة التي ألفها في موطنه فلسطين قبل الاحتلال، "وبذلك تبدو ذكريات الطّفولة موظّفة لإبراز أنّ الماضي يفسّر أزمات الحاضر وأنّ هذا الماضي حتى ولو حاول الإنسان قتله يظل حيّا في لا شعوره"[21]. أمّا الشّكل الثّالث والأخير فقد أولاه الباحث اهتماما خاصّا في الرّواية، كونه أكثر الأشكال تصويرا لمدى تفاعل المتكلّمين مع الزّمن الماضيّ واحتمائهم به في مواجهتهم للزّمن الحاضر الذي يعيشونه؛ أي إنّه يشكّل مظهرا أساسيّا لإبراز مأساة تفاعل زمن الأنا مع الزّمن المتحدّي كما اصطلح عليه "مينكوفسكي" Hermann Minkowski[22]، وهو ما عمل "محفوظ" على توضيحه من خلال شخصيتي وصال ومريم في تحدّيهما أو رفضهما للزّمن الحاضر، وتفضيلهما عيش تجربة ما في الماضيّ.

هكذا يكون الباحث في هذا المستوى، وتحديدا مع شكله الأخير أسهم بشكل كبير -على غرار المستوى السّابق- في إضاءة النّصّ الرّوائيّ دلاليّا، وأبان بشكل واضح -كذلك- عن علاقة المتكلّمين بالزّمن الماضي ومواقفهم المتباينة منه، وهو ما تجسّد بوضوح في الخطاطة التي لخّص الباحث-من خلالها- نوعيّة العلاقة بين أزمنة الأنا والزّمن الفيزيائيّ أو الزّمن المتحدّي، وهي علاقة يميّزها الاختلاف والتّناقض بين الزّمنين في ارتباطهما بالمتكلّمين؛ إذ يتميّز الزّمن المتحدّي (الفيزيائيّ) ببطء أزمنته التّعيسة (اليأس) وأزمنة الانتظار (الأمل)، أمّا زمن الأنا فيتميّز بمرور أزمنته السّعيدة (الغبطة) بسرعة على المتكلّمين[23]، وهو ما يشكّل دلالة الزّمن في النّص الرّوائيّ، وينهض علامة فارقة على

[21]: محمد نجيب (العمامي)، البنية والدّلالة في الرّواية، دراسة تطبيقية، مطبوعات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ط1، 2013، ص. 118.

[22]: ينظر، باشلار (غاستون)، جدلية الزمن، تر، خليل أحمد خليل، ص. 114.

[23]:ينظر،باشلار (غاستون)، المرجع السابق، والصفحة السابقة.

التباين بين أزمنة الاستعمار والاحتلال الطّويلة لفلسطين، وبين أزمنة الماضي السّعيد التي انقرضت وانخرمت بسرعة، إلاّ ما بقي منها منقوشا في الذّاكرة.

أخيرا في مستوى الإيهام والتنكّر الذي ينطلق الباحث في إضاءته واكتشاف تمظهراته في النّص الرّوائيّ "البحث عن وليد مسعود" دائما من "غاستونباشلار"[24]؛ إذ يركّز فيه على "الجانب المتصل بمحاولة إيهام النفس، أو الآخر بواسطة خلق مظاهر وأقوال تغطي الحقيقة وتقدم الزّيف"[25]. الأمر الذي عمل "محفوظ" على توضيحه من خلال إشارته لمراتب التنكّر ومختلف درجاته وأشكاله بين المتكلّمين ومواقفهم من الزّمن وعلاقاتهم به في النّصّ الرّوائيّ المدروس؛ إذ وقف على تنكرّ بسيط من الدّرجة الأولى (تنكّر1) متمثّلا في تنكّر وليد لطفولته ولتعالقه الحميم بها، في الوقت الذي يلجأ إليها في مواجهة حاضره المؤلم. في حين أنّه قد يتحوّل هذا النّوع من التنكّر إلى تنكّر من الدّرجة الثّانية (تنكر2) -كما يرى الباحث- وهو ما اكتشفه من خلال وليد الذي انطبق عليه التنكّر من الدّرجة الأولى حينما رفض ماضيه وأشعر الآخرين بمبالغته في الاهتمام به والتّركيز عليه، لكنّه وبمجرد علم الآخرين بمواقفه الحميميّة معه ينطبق عليه التنكّر من الدّرجة الثّانيّة. وأمّا التنكّر من الدّرجة الثّالثة (تنكّر3) الذي يجسّده "محفوظ" من خلال شخصيّة وصال كالآتي: (وصال تحب وليدا، تهجره وتنتظر زوجا، ثم تأمره بالهرب) (تنكّر1). (وصال ترفض إمكانية وجوده على قيد الحياة، وضمنا ترفض استمرارية حبه) (تنكّر2). (وصال ترفض إمكانية موته، وضمنا ترفض إمكانية موت حبها) (تنكّر3)[26].

من هذا المنطلق يكون "عبد اللّطيف محفوظ" في هذا القسم الثّاني من دراسته أكثر فاعليّة وانفتاحا في دراسة الزّمن في رواية "البحث عن وليد مسعود"، فهو وإن التزم حدود التّحليل الشّكليّ والتّقنيّ في القسم الأوّل، فإنّه استطاع في القسم الثّانيّ أن يصطنع لنفسه أدوات منهجيّة جديدة، وغير مألوفة في مقاربة دلالة الزّمن في الرّواية على النّحو الذي رأيناه من خلال إفادته من "غاستون باشلار" في دراسة العلاقة بين زمن الأنا والزّمن الفيزيائيّ. كما أنّه بالرّغم من تركيزه لمجهوداته -في استكشاف دلالة النّصّ الرّوائيّ- على علاقات المتكلّمين بالزّمن، دون أن يشمل ذلك جميع مستويات مقاربة الزّمن دلاليّا في النّصّ الرّوائيّ بشكل عام، إلاّ أنّه تمكّن وبكلّ جسارة واقتدار -في دراسته

[24]: ينظر، المرجع نفسه، ص. 123.

[25]: محفوظ (عبد اللّطيف)، صيغ التمظهر الروائي، ص. 138.

[26]: ينظر، المصدر نفسه، ص. 140.

ككلّ للزّمن في الرّواية-"أن يرسم ملمحه الخاص [عن طريق] فتح السرديات العربية على احتمالات جديدة تبحث في تشكل النص الروائي العربي لغة وبنية للكشف عن سماته الخطابية ورؤاه الدلالية"[27] التي تبقى مؤشّرا أساسيّا على تحقيق نوع من الإحاطة والشّموليّة في مقاربة النّصوص الرّوائيّة.

6-المصطلح الزّمني المترجم:

أمّا معاينة الجهاز المصطلحيّ الذي تواضع عليه "عبد اللّطيف محفوظ" في محاولة استكشافه لبنية الزّمن الدّلاليّة في رواية "البحث عن وليد مسعود" لجبرا إبراهيم جبرا ضمن كتابه "صيّغ التّمظهر الرّوائيّ، بحث في دلالة الأشكال"، فقد أظهرت اهتماما كبيرا -من طرف الباحث- في وضع مصطلحاته، وفي حسن تمثّلها واستيعابها، وبوعيه العميق بمفاهيمها وحمولاتها المعرفيّة والدّلاليّة في مرجعيّاتها الأصليّة. وقد برز هذا الاقتدار بشكل لافت، حينما أقحمها مع التّطبيق ودمجها فيه، "فوضعها على المحك [و] شحذها بتمثله، وصقلها بإدراكه ودقة رؤيته، فكان تعامله معها واعيا، وتلقيه لها متميزا ومختلفا، حين كسر الرتابة التي وسمت بميسمها الكثير من الدراسات التي وقفت عند حدود التقني، لم تتجاوزه، ولم تحد عنه قيد أنملة، واختزلت النصوص الروائية في أشكال جوفاء، وأطر مقولبة ومحنطة"[28]، لا تسهم سوى في إغراب العمليّة النّقديّة وإلغازها وتعقّدها، وتزيد في غموضها والتباسها.

من المواطن التي أجاد فيها الباحث كثيرا -في إطار دراسته لبنية الزّمن- وتجلّت فيها إمكاناته وقدراته العالية في التّعامل الإيجابيّ مع المصطلح وفي ضبطه وتدقيقه واستيعابه وحسن تمثّله، مبحث المدّة الذي فضّل أن يعنونه بالسّرعة السّرديّة الذي أبان فيه الباحث عن مقدرة كبيرة في فهم مصطلحاتها، وفي انتقائها بدقّة وصرامة علميّة متناهية، أسهمت في وضوح خطابه النّقديّ وانكشاف غموضه ولبسه، كما برزت هذه الدّقة وهذه الصّرامة العلميّة أكثر في إجادة تبريره لاختياراته وترجماته، التي سعى فيها إلى تركيز الدّال

---

[27]: مسكين (سعاد)، كتاب صيغ التمظهر الرّوائي للناقد عبد اللّطيف محفوظ، مجلة أيقونات، دورية رقمية محكمة تعنى بنشر البحوث السيميائية، ملف العدد: سيميائيات التوتر، ع4، 2014، مجموعة سيما للبحوث السيميائية، سيدي بلعباس، الجزائر، ص. 144.

[28]: لوكام (سليمة)، تلقي السرديات في النقد المغاربي، تقديم، القاضي (محمد)، دار سحر للنشر، تونس، دط، ديسمبر 2009، ص. 320.

اللّغويّ وتكثيف مدلوله، وذلك بهدف جعل المصطلح المترجم يستوعب بشكل دقيق جميع مرجعيّات المصطلح الغربّي وحمولاته الفكريّة والمعرفيّة والدّلاليّة.

ينطلق "عبد اللطيف محفوظ" من فهم خاص ودقيق لتقنيّات المدّةالمعروفة (الوقفة، المشهد، التّلخيص، والحذف) بنى عليه تحديده لتشكيلة مصطلحيّة أكثر ملاءمة وانسجاما مع فهمه وتصوّره، فهو يقترح تعويض مصطلح الوقفة la pauseبمصطلح الموجز الوصفيّ، ومصطلح المشهد la scène بالموجز المشهديّ ومصطلح التّلخيص le sommaire بالموجز المكثّف مع احتفاظه بمصطلح الإضمار أو الحذف L'ellipse، لتصبح هذه المصطلحات جميعا تدلّ على الإيجاز بدرجات متفاوتة من الكثافة، ولتعبّر عن طبيعة الكتابة المقتصدة في مستوى الخطاب بالقيّاس إلى القصّة[29] التي لا تقبل طبيعة ترتيب أحداثها، ونظام بنائها وتسلسلها المنطقيّ الكرونولوجيّ أيّ اقتصاد أو تحريف أو تصرّف.

يبرّر "عبد اللّطيف محفوظ" مصطلحاته من منطلق استيعابه الجيّد وإدراكه العميق لكيفيّة اشتغال هذه التّقنيّات وللتّأثير الذي تحدثه على مستوى مدّة زمن القصّة في مستوى الخطاب، فهو ينطلق من التّسليم بأنّ مدّة القصّة تفوق دائما مدّة الخطاب، وأنّها تظلّ دائما أكثر سرعة وكثافة منه؛ لأنّه مهما تنوّعت هذه التّقنيّات، ومهما تعدّدت مظاهرها وأشكالها، إلاّ أنّ تأثيرها لا يكون إلاّ بشكل نسبيّ، على الرّغم من تضمّن المحكيّ العديد من المقاطع الوصفيّة والمشاهد الحواريّة. وبناء على ذلك راح يدحض التّصوّرات السّائدة في تحديد هذه التّقنيّات وفي فهم وظائفها وأدوارها التي تنهض بها داخل خطاب المحكيّ، ولذلك فهو يؤكّد: "أنّ ما يعتقده الكثيرون من كون الوصف يشكّل وقفا للسرد أو تجميدا لزمن [القصّة] ليس إلا وهما من الأوهام السائدة. لأن الوصف في الواقع ليس سوى صيغة من صيغ السرد...[ولأن] المقطع الوصفي يدخل للتخفيف من حدة الثغرات. وليقدم إيجازا لزمن أطول منه. وتتمثل الثغرات في القفز المتسارع على فترات زمنية موجودة بالقوة ولكنها مطمورة في مستوى الخطاب"[30]. لينتهي في الأخير إلى أنّ "الوصف لا يوقف السرد. ولكنه يساهم في ملء بعض الثغرات الموجودة في زمن [القصة]. ولكن بشكل موجز تتقلص بفضله المسافة بين زمن [القصة] وزمن الخطاب. دون أن يتحقق

[29]: ينظر، محفوظ (عبد اللّطيف)، صيغ التمظهر الروائي، ص. 119، 120.

[30]: المصدر نفسه، ص. 116.

التساوي بينهما. أو أن يصبح زمن [القصة] أقل سرعة من زمن الخطاب"[31]. مبرّرا بذلك ومعلّلا استعماله لمصطلح الموجز الوصفيّ بدل مصطلح الوقفة.

بالكيفيّة نفسها ،انطلق الباحث في تبرير تفضيله مصطلح الموجز المشهديّ على مصطلح المشهدLa scène؛ إذ يذهب كذلك إلى ردّ الاعتقاد السّائد من أنّ الحوار حين يتخلّل السّرد يخلق نوعا من التّوازي أو التّساوي بين مدّة الزّمن في القصّة ومدّته في الخطاب، منهيا بذلك التّفاوت الحاصل بينهما. فهذا الاعتقاد -في نظره- ينبع من جعل الحوار والأقوال المنقولة بشكل مباشر، محاكاة خالصة تتيح إمكانية التّساوي بين الزّمنين؛ لذلك فهو يرفض أن يكون الأمر كذلك لعدم دقته، لأنّ العمل الرّوائيّ ككل - ومنه الحوار- يعدّ إنتاجا لغويّا خالصا معدّا أساسا للقراءة، وبما أنّه يعدّ كذلك؛ فإنّ كلّ شيء فيه يتحوّل إلى لغة، بما في ذلك الدّيكور، والحركات، والإيماءات، والنّبرات المصاحبة للكلام، وفترات الصّمت الضّمنيّة التي تصاحب أيضا كلّ حوار ساخن أو محرج، و بين السّؤال والرّد، وجميع الظّروف النّفسيّة التي تنتاب الشّخصيّات المتحاورة التي من شأنها أن تفضي إلى تقلّص أو تمطّط الملفوظات، وتؤشّر على وجود انقطاعات وفواصل، أو فجوات وفترات زمنيّة غير مشخّصة أومتمظهرة في الخطاب[32]. فجميع هذه الأحوال وهذه الفترات المصاحبة للحوار يتم تجاوزها في أثناء لحظة الكتابة وعند القراءة أيضا؛ لأنّ العين القارئة لا تتمهّل ولا تنتظر ولا تتمثّل لحظات التّفكير الصّامتة التي تسبق ردود المتحاورين وإجاباتهم وأقوالهم، وحين ذاك تغدو كلّ هذه الحالات والمظاهر أشكالا دالة على استحالة التّوازي أو التّوازن بين زمن القصّة وزمن الخطاب الذي يبقى دائما يتميّز بالتّقليص والإيجاز مع مختلف أشكال الحوار وحالاته، في مقابل القصّة التي تظلّ هي الأخرى مكثّفة وأكثر طولا[33] ومدّة زمنيّة.

أمّا وصفه لمصطلح التّلخيص le sommaire بالموجز المكثّف، فقد علّله بتجنب الالتباس الذي قد يحصل جرّاء الإبقاء على المصطلح الأوّل، كون أنّ عمليّة الإيجاز أو التّلخيص هذه لا تكون حقيقيّة بقدر ما تكون مزيّفة، وعبارة عن إعادة إنتاج لما حصل

[31]: المصدرنفسه، ص. 118.

[32]: ينظر،محفوظ (عبد اللّطيف)، المصدر السابق، ص. 118، 119.

[33]: ينظر، المصدر نفسه، ص. 119.

في الواقع بطريقة تلخيصيّة تميل أكثر إلى التّكثيف؛ لذلك تبقى دلالة المصطلح -في نظره- مطابقة تماما لوظيفته التّكثيفيّة.

إنّ التّشكيل المصطلحيّ الذي تواضع عليه "عبد اللّطيف محفوظ"، وإن كان يطبعه كثير من التحفّظ، لا سيّما من جانب طوله وصيغة التّركيب التي تميّز المقابل العربيّ، أو من جانب دلالة الإيجاز التي ظلّت تلازم أغلب مصطلحاته المترجمة. وبالرّغم من ذلك يبقى إنجازه مبرّرا من نواحي عديدة أيضا، أهمها: استيعابه العميق لدلالات مصطلحاته ولمفاهيمها في مرجعيّاتها الأصليّة، وحرصه الشّديد على محافظتها على وظائفها وأدوارها من خلال ربطها بتلك المرجعيّات والأصول الأولى، ممّا ساعده كثيرا على إجادة تمثّلها وتوظيفها خاصّة عند إقحامها في التّطبيق.

إذا كانت الدّراسة قد وقفت على بعض جوانب الإجادة والتميّز في وضع المصطلح، وفي طريقة إنشائه وتوليده في دراسة الباحث "عبد اللّطيف محفوظ" لبنية الزّمن في رواية "البحث عن وليد مسعود" لجبرا إبراهيم؛ فإنّه -في مقابل ذلك- جاء اشتقاقه لبعض المصطلحات واستعماله لها بطريقة تبعث على الغرابة والالتباس، ومن ذلك ما اختاره لمصطلح la fréquence الذي ترجمه بالدبدبة التي تحتاج إلى كثير من الشّرح والتّوضيح والتّبرير، فهي ترجمة نشاز يلفّها الغموض والالتباس من كلّ جانب، علاوة على عدم استساغتها وقصورها عن تأديّة المعنى المقصود، بل وحتّى دلالتها المعجميّة لا تفي بالغرض، وتنأى عن تأديّة معنى التّكرار الذي يحصل للحدث السّرديّ في خطاب المحكيّ، والذي قصده "جينات" تحديدا ليس تكرار الحدث وحسب، وإنّما الطّريقة التي يعاد إنتاجه بها مرّة أخرى[34]. وبهذا فمعنى التّكرار الذي يكون الباحث قد قصده -من وراء هذه الكلمة التي من معانيها تتابع المشي وتقاربه وتماثله- ومن معانيها أيضا تَكرار الصّوت ومشابهته ومحاكاته-[35] لا يمكنه الإحاطة بمدلول المصطلح la fréquence وبمرجعيّته

[34]: Voir, Genette (Gérard), Figures III, p. 216, 217.

[35]: جاء في لسان العرب: "والدّبدبُ: مشي العجروف من النمل، لأنه أوسعُ من النمل خطوا، وأسرعها نقلا. وفي التهذيب: الدَّبدبةُ: العجروف من النمل. وكلّ سرعة في تقارب خطو: دبدبة. والدَّبدبة: كلّ صوت أشبهَ صوتَ وقع الحافر على الأرض الصُّلبة. وقيل الدَّبدبة ضرب من الصوت. وأنشد أبو مهدي: عاثور شرٍّ أيّما عاثورِ * دبدبة الخيل على الجسور. (...) دبدب الرّجل إذا جلب، ودردب إذا ضرب بالطّبل والدّبداب: الطّبل...والدّبادب صوت كأنّه دَبْ دَبْ، وهي حكاية الصوت". ينظر، لسان العرب تح، عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، مصر، القاهرة، د ط، د ت.مج2، باب الدّال، مادة (دبب).

الأصليّة. وليت "عبد اللّطيف محفوظ"-أمام هذه الوضعيّة الاصطلاحية النّشاز- كلّف نفسه قليلا عناء تبرير اختياره هذا، كما صنع مع مصطلحات المدّة، أو أنّه التزم حدود ما هو شائع ومتداول من ترجمات، فجنّب القارئ بالتّالي هذا المصير المجهول الذي آلت إليه دلالة المصطلحLa fréquence.

يضاف إلى ذلك استعماله لمصطلح حكاية في مقابل Histoire، وهي ترجمة يكاد ينفرد بها النّقاد التّونسيّون لوحدهم على الرّغم من دلالات الالتباس والغموض التي تلفّها، كما تمّ تبيان ذلك في موضع سالف من هذا الفصل. وهناك ملاحظة أخرى تشدّ الانتباه كثيرا، وهيّ عدم إرداف الباحث المصطلح الأجنبيّ إلى جانب المصطلح المترجم أو مقابله العربيّ، وذلك على طول الدّراسة كلّها؛ إذ لا يوجد مقابل عربيّ واحد وُضع إلى جانبه أصلُه الغربيّ، وهي إشكاليّة يلاقي معها القارئ صعوبة كبيرة في التّعرّف على الأصل الغربيّ لهذه المصطلحات، ويعجز عن إدراك كنهها ومدلولاتها التي قصد إليها الباحث، باستثناء ما يُتوصّل إليه من خلال الشّروحات التّي ذيّل بها عرضَه لهذه المصطلحات والمفاهيم،أو من خلال التّعريفات التي سبقت إجراءاته وتطبيقاته لها، أو من خلال ما يتأوّله الدّارس استنادا لتعامله مع بعض الدّراسات والتّطبيقات المشابهة. ومن بين هذه المصطلحات توجد مصطلحات: العمق، الامتلاء، والترسّب...وغيرها.

يمكن القول أخيرا، إنّ خطابا نقديا يتعامل مع المصطلح بهذه الكيفيّة، قد يفقد كثيرا من رصانته ودقّته ووضوحه واستحكامه، ولولا أنّ "عبد اللّطيف محفوظ" شفّع عمله بشروحاته وتدخّلاته المصاحبة لإجراءاته وتطبيقاته -التي انعكست تأثيراتها الإيجابية أساسا على مصطلحات المدّة-التي تميّزت بالدّقة والوضوح- لتحوّل خطابه النّقديّ إلى شبكة من المصطلحات والمفاهيم التي يسودها التّعقيد والإلغاز، ويسيطر عليها الغموض والالتباس.